نزول القرآن وفق معهود العرب وأثره في المعنى

الطالب: عيشوبة محمد
جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان

ملخّص البحث

يعدّ الحديث عن التجديد في فهم نصوص القرآن الكريم وفق مقتضيات العصر الحالي أمرا في غاية الأهمية، نظرا لما تعيشه الأمّة من تغيّرات في شتّى مناحي الحياة الدينية منها والدنيوية، بدعوى أنّ القرآن الكريم يحمل طابع الصلاح لكلّ زمان ومكان.

لكنّ هذا التجديد في الفهم لا يعني إحداث القطيعة بين ما قرّره أسلافنا، وما نعيشه اليوم، بل الجمع بين الثوابت والمتغيّرات أصل معتبر في الشريعة الإسلامية، وعليه سنبرز في هذا البحث جانبا مهمّا لا نستطيع أن نغفل عنه وهو أنّ القرآن الكريم أُنزل بلسان عربيّ وإلى أمّة عربيّة ليفهموه وليعملوا به، أي أنّه أُنزل وفق معهود العرب وما تعيشه من أحوال ليحمل مع ذلك طابع الإعجاز في مضمونه.

توطئة:

أنزل الله القرآن الكريم، وجعله مشتملا على أوجه الإعجاز التي تَظهر في كلّ زمان، دليلا على صدق مصدريّته أوّلا بكونه كلاما إلهيا مقدّسا، وحجّة دامغةً على صدق نبوّته- صلّى الله عليه وسلّم- ثانيا، سواء للذين صدّوا وأعرضوا عنه ابتداءً، وهم من نزل فيهم الخطاب، أو المشككين فيه عبر العصور إلى يوم القيامة.

ولا يزال الدارس لكتاب الله، والناظر فيه فهما وتدبّرا واستنباطا للآيات الكونية يستلهم من كنوزه وجواهره تعجزه الآية تلوى الأخرى حتى يحسّ أنّه كلامُ الله الذي أَودع فيه علم.الدين.والدنيا. وحينما تتعدّد أوجه الإعجاز فيه فهو يسع كلّ متفنّن ومتخصّص في علم من العلوم ليبرز حسن هذا الإعجاز، لكن لا يخفى على كلّ ذي لبّ أنّ من بين معجزاته أنّه وافق لغة العرب، فهو أنزل بلسانهم بدليل القرآن نفسه، ولذا استوقفتني فكرة وهي أنّه ما دام القرآن وافق أحوال المخاطبين عصر النزول، وفي ظلّ ما يثار حول حتمية التجديد في فهم النصّ القرآني وفي تفسيره، ونقصد بهذا التجديد إبراز ما يحمله القرآن من مكنونات توافق هذا العصر، وليس معناه أنّ القرآن صلُح للعصر الأوّل ولا يصلح لهذا العصر، فهذا باطل، فهل يلزم الرجوع في ذلك إلى أحوال التنزيل الأوّل وفق ما عاشوه، أم أنّه لا حرج في ذلك إلاّ إذا تطلّب الأمر ذلك، لا سيما من ناحية البلاغة والبيان، ولهذا في هذا البحث سنبرز العلاقة بين القرآن ومعهود العرب ومدى تأثيره في توسيع المعنى .

1/ تعدّد أوجه الإعجاز في القرآن الكريم:

إنّ معجزات القرآن المتعدّدة الحسيّة منها والمعنوية لدَليل صلاحِه لكلّ عصر ومَصر، فإذا عرفنا أنّه اشتمل على براعة النّظم وحسن الأسلوب، وغاية البيان والبديع، وما نعيشه من أحوال الدنيا بأعيننا، وما نجهله حتى بعقولنا إدراكا وصِفَة كعالم الملائكة والجنّ والشياطين، بل عن أنباء الأوّلين والآخرين، وموافقة تشريعاته للإنسان، وما فيه من الآيات الكونية المعجزة فكلّها تدخل تحت دائرة التحدّي الذي قصده الله بقوله:" **قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**"[1].

عندما ينوّه العلماءُ والباحثون على هذا، ويعدّدون أنواعه فنحن لا نشكّ في ذلك، ولكن لا ينوّهون إلاّ قليلا عما هو سرّ هذا الإعجاز وما أثره على حياة النّاس، وذلك بإصلاح أحوالهم عن طريق القرآن، كاعتقادات المشركين الباطلة، فالقرآن وصل بروعة بيانه وبلاغته ليصحّح العقيدة الخاطئة لديهم وهذا ما حصل، ولم تكن الغاية من وراء ذلك أن يعجزهم وينتهي الأمر، وكذلك اليوم من وراء المعجزات الكونية، ولهؤلاء الذين يستهزئون بأحكام الشريعة أمرا ونهيا، ففرق بين الإعجاز وبين سرّ الإعجاز وغايته.

قال الإمام القرطبي في تفسيره لقوله تعالى:" **وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لارْتابَ الْمُبْطِلُونَ**"[1].

" أي: وما كنت يا محمّد- صلى الله عليه وسلّم- تقرأ قبلَه ولا تختلف إلى أهل الكتاب، بل أنزلناه إليك في غاية الإعجاز والتضمين للغيوب وغير ذلك"[2].

وبما أنّ بحثنا حول معهود العرب لا بدّ أن نبيّن إعجاز القرآن من ناحية أسلوبه، لنصل إلى موافقته لكلام العرب والغاية من تعدّد الاستعمالات اللغوية، ولذلك نعرف **أسلوب القرآن:**

أ/ تعريف أسلوب القرآن:

يقول الزرقاني مبيّنا أسلوب القرآن:" فأسلوب القرآن الكريم هو طريقته التي انفرد بها في تأليف واختيار ألفاظه ولا غَرابة أن يكون للقرآن الكريم أسلوب خاص به فإنّ لكلّ كلام إلهي أو بشري أسلوبه الخاص به وأساليب المتكلّمين وطرائقهم في عرض كلامهم من شعر أو نثر تتعدّد بتعدّد أشخاصهم بل تتعدّد في الشخص الواحد بتعدّد الموضوعات التي يتناولها والفنون التي يعالجها"[4].

إذا فالقرآن الكريم له أسلوب فريد في تناوله كلّ قضية، فمن خلاله يُظهِر إعجازه، فإذا كانت لغوية وَجَدت روعة البيان وحسن الألفاظ، وإذا كانت من جانب النظم وَجَدت حسن التناسق، وإذا كانت كونية وَجَدت ما يبرز ذلك حينما يجمع بين روعة الجمال والبيان العلمي وهكذا.

يقول ابن عطية الأندلسي في بيان حسن الألفاظ: "وكتاب الله لو نزَعت منه لفظة ثمّ أُدِيرَ لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد"[5]

ويقول حسن البنا في سياق حديثه عن الإعجاز العلمي:"كان أسلوب القرآن في التكلّم عن هذه المظاهر الكونية أسلوبا معجزا حقا .. .."[6].

ويقول في موضع آخر:" ليس غريبا أن يجيء أسلوب القرآن فسيحا غير ضيّق، مرنا غير جامد، وأن يدع دائما التفصيل والتفريع للظروف والحوادث والعوامل الموضعية الخاصة"[7].

ويبرز عبد الله درّاز حُسن التناسق وجمالية الصوت في كتاب الله بقوله:" دع القارئ المجوّد يقرأ القرآن يرتله حقّ ترتيله نازلًا بنفسه على هوى القرآن، وليس نازلًا بالقرآن على هوى نفسه. ثمّ انتبذ منه مكانًا قصيًّا لا تسمع فيه جرس حروفه، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها، ومدّاتها وغنّاتها، واتصالاتها وسكتاتها، ثمّ ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية، وقد جردت تجريدًا وأرسلت ساذجة في الهواء، فستجد نفسك منها بإزاء لحن غريب عجيب لا تجده في كلام آخر لو جرّد هذا التجريد، وجوّد هذا التجويد"[8].

ونذكر مثالا عن حسن اختيار الفظ في التعبير القرآني وهو ما ذكره الزمخشري في قوله تعالى:﴿ **"يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً، وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً﴾**[9].

قال:" «ذكر المتّقون بلفظ التبجيل، وهو أنّهم يُجمعون إلى ربّهم الذي غمرهم برحمته، وخصّهم برضوانه وكرامته، كما يَفِد الوفاد على الملوك منتظرين الكرامة عندهم، وذكر الكافرون بأنّهم يساقون إلى النّار بإهانة واستخفاف، كأنّهم نَعَمٌ عِطاش تساق إلى الماء[10].

وهذا الذي ذكره الزمخشري هو في استعمال لفظ" **نحشر**" بالنسبة للمتّقين، أمّا بالنسبة للمجرمين فكان اللفظ مغاير وهو" **نسوق**"، وقد ذكر في القرآن الكريم في مواضع أخرى أنّ الفعل " **ساق**" قد استعمل في حقّ المتقين، وذلك في قوله تعالى:﴿ **وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً﴾**[11].

وقد ذكر الباحث أحمد ياسوف في كتابه "**جمالية المفردة القرآنية**" تعليقا على ذلك وأجمل القول فيه.[12]

إنّ هذا التنويع في أسلوب القرآن الكريم يجعله يتميّز عن أيّ كلام وُجد عند البشر شعرا ونثرا وخَطابة، وعليه سنبيّن بعض خصائص أسلوب القرآن الكريم.

2/خصائص أسلوب القرآن:

إنّ الخصائص التي امتاز بها أسلوب القرآن والمزايا التي توافرت فيه جعلت له طابعا معجزا في لغتِه وبلاغتِه أفاض العلماء فيها بين مقلّ ومكثر ... أمّا الاستقصاء والإحاطة بمزايا الأسلوب القرآني وخصائِصه على وجه الاستيعاب، فأمر استأثر به مُنَزِّله الذي عنده علم الكتاب[13]. وكإرضائه العقل والعاطفة، ومعنى هذا أنّ أسلوب القرآن يخاطب العقل والقلب معا[14].

3/معهود العرب وأثره على توسيع المعنى

وقبل الحديث عن معهود العرب وأثره في توسيع المعنى، نشير إلى تعريف معهود العرب، ثمّ نبيّن كيف وافق القرآن معهود العرب في كلامها واستعمالاتها ومجاري أحوالها.

أ/ تعريف معهود العرب:

ذكر الإمام الشاطبي في كتابه "**الموافقات** "، إشارة إلى تعريف معهود العرب فقال:"فإِنْ قُلْنَا: إِنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ بِلِسَانِ الْعَرَبِ وَإِنَّهُ عَرَبِيٌّ وَإِنَّهُ لَا عُجْمَةَ فِيهِ، فَبِمَعْنَى أَنَّهُ أُنْزِلَ عَلَى لسان معهود العرب فِي أَلْفَاظِهَا الْخَاصَّةِ وَأَسَالِيبِ مَعَانِيهَا، وَأَنَّهَا فِيمَا فُطِرَتْ عَلَيْهِ مِنْ لِسَانِهَا تُخَاطِبُ بِالْعَامِّ يُرَادُ بِهِ ظَاهِرُهُ، وَبِالْعَامِّ يُرَادُ بِهِ الْعَامُّ فِي وَجْهٍ وَالْخَاصُّ فِي وَجْهٍ، وَبِالْعَامِّ يُرَادُ بِهِ الْخَاصُّ، وَالظَّاهِرُ يُرَادُ

بِهِ غَيْرُ الظَّاهِرِ، وَكُلُّ ذَلِكَ يُعْرَفُ مِنْ أَوَّلِ الْكَلَامِ أَوْ وَسَطِهِ أَوْ آخِرِهِ، وَتَتَكَلَّمُ بِالْكَلَامِ يُنْبِئُ أَوَّلُهُ عَنْ آخِرِهِ، أَوْ آخِرُهُ عَنْ أَوَّلِهِ ، وَتَتَكَلَّمُ بِالشَّيْءِ يُعْرَفُ بِالْمَعْنَى كَمَا يُعْرَفُ بِالْإِشَارَةِ، وَتُسَمِّي الشَّيْءَ الْوَاحِدَ بِأَسْمَاءَ كَثِيرَةٍ، وَالْأَشْيَاءَ الْكَثِيرَةَ بِاسْمٍ وَاحِدٍ، وَكُلُّ هَذَا مَعْرُوفٌ عِنْدَهَا لَا تَرْتَابُ فِي شَيْءٍ مِنْهُ هِيَ وَلَا مَنْ تَعَلَّقَ بِعِلْمِ كلامها"[15].

واضح من كلام الشاطبي أنّ المقصود منه- معهود العرب- أي: ما كانت تعرفه العرب وقت النزول من الألفاظ والدّلالات والاستعمالات المختلفة، فالقرآن بذلك جمع كلّ ألسنة العرب ليفهموه، فهو أنزل إليهم ووفْقَ لسانهم ولكن مع خاصية الإعجاز، وكذلك نضيف أنّ القرآن راعى بذلك أحوال ما يعيشوه في بيئتهم الخاصة من ظروف وأحوال .

وعليه فالكلام ذو صلة ببعضه، فإذا كان القرآن لم يخرج عن سُنَن وقوانين وخصائص لغة العرب فأين الإعجاز في هذا ، ولماذا احتار هؤلاء عند نزوله إذا كان ممّا ألفوه واعتادوه، أو أنّ القرآن أعجز البعض منهم، وهم من ليس لهم فصاحة اللّسان وقوّة البيان، أمّا البعض الآخر فلم يعجزهم لأنّ لهم القدرة على فهمه والإحاطة بكلّ أساليب اللغة، فهذه المسألة تطرّق إليها "عبد الله دراز" في سياق حديثه عن هذا : فقال:" ولكنّي لست أفهم أنّ ناحيته اللّغوية يمكن أن تكون من مظانّ هذا السرّ؛ لأنّي أقرأ القرآن فلا أجده يخرج عن معهود العرب في لغتهم العربية: فمن حروفهم رُكّبتْ كلماتُه. ومن كلماتهم أُلّفت جمله وآياته، وعلى مناهجهم في التأليف جاء تأليفه، فأيّ جديد في مفردات القرآن لم يعرفه العرب من موادها وأبنيتها؟ وأي جديد في تركيب القرآن لم تعرفه العرب من طرائقها ولم تأخذ به في مذاهبها، حتى نقول: إنه قد جاءهم بما فوق طاقتهم اللغوية ؟"[16]

وهذه الشبهة التي ذكرها قد أتْبعها بالردّ بعد ذلك **فقال:**

"أمّا أنّ القرآن الكريم لم يخرج في لغته عن سُنن العرب في كلامهم إفرادًا وتركيبًا فذلك في جملته حق لا ريب فيه، وبذلك كان أدخل في الإعجاز، وأوضح في قطع الأعذار في قوله تعالى:﴿**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ**﴾[17]"[18].

ثمّ بعد ذلك أتبعها بشرح ما المقصود من معهود العرب بقوله:" وترى أهل اللّغة الواحدة يؤدّون الغرض الواحد على طرائق شتّى يتفاوت حظّها في الحسن والقَبول، وما من كلمة من كلامهم ولا وضع من أوضاعهم بخارج عن مواد اللّغة وقواعدها في الجملة. ولكنّه حسن الاختيار في تلك المواد والأوضاع قد يعلو بالكلام حتى يسترعي سمعك، ويثلج صدرك، ويملك قلبك. وسوء الاختيار في شيء من ذلك قد ينزل به حتى تمجه أذنك، وتغشى منه نفسك، وينفر منه طبعك.ذلك أنّ اللّغة فيها العام والخاص، والمطلق والمقيد، والمجمل والمبيّن، وفيها العبارة والإشارة والفحوى والإيماء، وفيها الخبر والإنشاء، وفيها الجمل الاسمية والفعلية"[19].

4/ فهم القرآن الكريم وفق معهود العرب

ويظهر ممّا سلف ذكره أنّه إذا كان القرآن لكريم أُنزل وفق ما تعرفه العرب من الخطاب ومن الأحوال، فهل يلزم من ذلك أنّ فهمه الآن خصوصا، والشريعة عموما تكون وفق عصر التنزيل الأوّل أم لا بدّ من التغيير والتجديد، ولذلك نعرض بعض الأقوال في ذلك.

يقول الشاطبي:" إنّه لا بدّ في فهم الشريعة من اتباع معهود الأمّيين؛ وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم"[20].

ويقول في موضع آخر:" لا بدّ لمن أراد الخوض في علم القرآن والسنة من معرفة عادات العرب في أقوالها، ومجاري عاداتها حالة التنزيل من عند الله والبيان من رسوله صلى الله عليه وسلم؛ لأنّ الجهل بها موقع في الشّبه والإشكالات التي يتعذر الخروج منها إلا بهذه المعرفة"[21].

ويقول الإمام الشافعي في ذلك:" إنّما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيه"[22].

وقال صاحب" **المنار**":" على المدقّق أن يفسر القرآن بحسب المعاني التي كانت مستعملة في عصر النزول"[23]

ويؤيّد أحد الباحثين هذا القول بقوله:" إذا كان هذا الذي قلناه واضحا، وما أخاله يخفى على أحد من أنّ القرآن الكريم نزل بلسان عربيّ مبين، وأنّه اتخذ من قوانين اللّغة وخصائصها في البيان أداة ونهجا وأسلوبا للتعبير عن معانيه.. أقول: إذا كان هذا هكذا؛ فإنّه ينبغي أن يسلك به في الاستنباط والاستدلال مسلك العرب في تقرير معانيه على ما هو المعهود عندهم في تلقي الخطاب[24].

ويذكر نور الدين الخادمي نفس القول بقوله:" لقد ذكرنا سابقًا بأنّ القرآن لا يمكن أن يفهم إلاّ بلغته التي نزل بها، وعلى وفق معهود العرب في التخاطب أيام النزول، ولا يمكن البتة فهم القرآن بغير لغته التي نزل بها:

أ- سواء بلغة العرب في غير عصر النزل؛ وذلك لما يحتمل أن يطرأ على لغتهم وتخاطبهم من التغيير والتطور والتبديل، ولو على مستوى بعض الكلمات والعبارات والأساليب التي يكون تغيرها عن معهود العرب أم نزول الوحي مؤديا إلى تغيير المراد الشرعي ومقصوده"[25].

ومن خلال ما سبق تبيّن أنّه لا بدّ من الرجوع إلى خطاب القرآن وقت التنزيل، سواء في فهم مفرداته وأساليبه، أو في تفسيره، لكن قد تتغيّر هذه الألفاظ بمرور الوقت فما الحلّ إذا طُلب ترجمة القرآن إلى لغة أخرى، أو في استنباط جديد لأحكام الشريعة تتوافق ومتطلّبات العصر.

فيذكر الشاطبي- أنّ للغة العربية **دلالتين:**

"**الأولى:** من جهة كونها ألفاظا وعبارات مطلقة، دالّة على معان مطلقة ..

وهي الدلالة الأصلية، وهذه تشترك فيها جميع الألسنة، وإليها تنتهي مقاصد المتكلمين، ولا تختص بأمّة دون أخرى، وهي التي يمكن ترجمتها إلى اللغات الأخرى، ومنها صحّ تفسير القرآن، وبيان معناه للعامّة ومن ليس له فهم يقوى على تحصيل معانيه.

والثانية: من جهة كونها ألفاظا وعبارات مقيدة، دالّة على معان خادمة... وهي الدلالة التابعة للدّلالة الأصلية. وهذه الدلالة يختص بها لسان العرب"[26].

فهذا الذي أشار إليه الشاطبي يحلّ الإشكال، فإذا أراد الإنسان أن يصل إلى المعنى دون تكلّف أو لعدم وجود ملكة لغوية لديه تؤهّله للاستنباط، أو أراد أن يوصل المعنى لغير العرب فهناك ألفاظ ودلالات تصل بسهولة للدلالة على مقصود المتكلّم (الله)، فالقرآن للناس كافة، أمّا من أراد البحث عن حسن الأسلوب والنظم وروعة البيان ثمّ أراد أن يفهمه من غير ملكة لغوية، أو عدم الرجوع في ذلك إلى لسان العرب فهذا محال ولو أفنى عمُره في ذلك، فهذه ميزة لسان العرب وسرّ الإعجاز.

5/موافقة القرآن معهود العرب وأثره في على المعنى:

أ/حروف أوائل السور وموافقتها لمعهود العرب

اختلف العلماء في تحديد معاني حروف فواتح السور، فمنهم من قال هي دالّة على أسماء الله، ومنهم من قال هي مسمّيات للسور[27]، وقيل استأثر الله بعلمها[28]، وقيل هي تعجيز للعرب وتبكيتهم وذلك لأنّ كلامهم خرج عن هذا المعهود، ولكن يوجد قول بأنّ فواتح السور كانت العرب تكنّي بالأحرف أيضا في كلامها، فيدلّ هذا على أنّها من معهود العرب، وهذه الأمثلة تبيّن ذلك.

ذكر الإمام فخر الدين الرازي ت(**606هـ**)، أنّ الحروف الموجودة في فواتح السور دليل على أسماء الله في كلّ حرف منها ونسب القول إلى ابن عباس فقال:" قال ابن عباس -رضي الله عنهما- في {الٓمٓ} : الألف إشارة إلى أنّه تعالى: أحد، أوّل، آخر، أزلي، أبدي؛ واللام إشارة إلى أنّه: لطيف، والميم إشارة إلى أنّه: ملك مجيد منان.

وقال في {كٓهيعٓصٓ} إنّه ثناء من الله تعالى على نفسه، والكاف يدلّ على كونه كافيًا، والهاء يدل على كونه هاديًا، والعين يدلّ على العالم، والصاد يدل على الصادق"[29].

وذكر ابن جرير الطبري ت(**310هـ**) :" عن ابن عباس أنّه حمل الكاف على الكبير والكريم، والياء على أنّه يجير، والعين على العزيز والعدل"[30].

وهذه الأمثلة ممّا كانت العرب تكنّي به في كلامها، والاكتفاء ببعض الكلمة معهود في العربية، **قال الشاعر:**

قُلتُ لَهَا قِفِي فَقَالَت قَاف ... لاَ تَحْسِبِينَا قَدْ نَسَبْنَا الإِيجَافَ[31]، أي: **وقفت.**

وقال:

بِالخَيْرِ خَيْرٌ وَإِنْ... وَلاَ أُرِيدُ الشَرَ إِلاَّ أَنْ تَا[32]

أراد: وإن شرًّا فشر، إلّا أن تشاء.

وقال:

نَادَاهُمُ أَلاَ أُلْجُمُوا أَلاَ تَا ... قَالُوا جَمِيعًا كُلُّهُمْ أَلاَ فَا[33]

أراد: ألا تركبون، ألا فاركبوا.

وهذا القول اختاره الزَّجَّاج، وقال: العرب تنطق بالحرف الواحد تدل به على الكلمة التي هو منها"[34]

ب/ الحذف والزيادة

استعمل القرآن الكريم الحذف في بعض الكلمات كأن يحذف الحرف والحرفين، ولكن دون أن يتغيّر النظم ولا المعنى، وهذا الذي استعمل في القرآن قد جرى في كلام العرب.

ومثاله:"كقولهم: " **لم يكُ** " وهم يريدون " **لم يكن** "، ولم " **أُبَلْ** " وهم يريدون " **لم أُبال** "، ويختزلون من الكلام ما لا يتمّ الكلام على الحقيقة إلا به، استخفافاً وإيجازاً"[35].

قال النّمر بن تولب:

فإنَّ المنيَّةَ منْ يَخْشَهَا ... فسوفَ تُصادِفُهُ أينَمَا

أراد " أينما ذهب " أو " أينما كان " فحذف، ومثل هذا كثير في القرآن والشعر[36].

وفي القرآن كقوله تعالى:﴿ **وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا**﴾[37]،

وكقوله أيضا:﴿ **ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾[38]

وكقوله تعالى: ﴿ **وَلا يَذْكُرُ الإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا**﴾ [39]

وكذلك استعمل القرآن في كثير من الآيات العطف، سواء في الأسماء والأفعال فيُجري العطف الثاني على الأوّل حال النصب والجزم وغيرها كقوله تعالى:﴿ **إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ**﴾[40]، فجاءت كلمة" **يثبّت**" مجزومة على "**ينصركم**".

وكقوله تعالى:﴿ **فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ من يَشَاء**﴾[41].

ونضرب أمثلة من كلام العرب، فقد أتى كثيرا في الشعر:

قال **الأعشى**:

وَمن يَغْتَرِبْ عَنْ قومه لَا يزلْ يرى
مصَارِعَ مظلومٍ مجرًا ومسحبًا
وتدفن مِنْهُ الصَّالِحَات وَإِن يسئ ...
يكن مَا أَسَاءَ النَّار فِي رَأس كبكبا

فقد جاء الفعل" **يزل**" مجزوما كما هو حال الفعل الأوّل"**يغترب**".

ج/التّكرار في القرآن وجريانه وفق معهود العرب

كثيرا ما تجد بعض المفردات في القرآن الكريم أو بعض رؤوس الآي، أو بعض الآيات تتكرّر، لكن هذا التّكرار له سرّه وإعجازه، وليس مجرّد التّكرار فقط، وهذا أيضا جرى على ألسنة العرب في شعرها ونثرها وخَطابتها، ونضرب لذلك أمثلة من القرآن ومن كلام العرب.

ففي القرآن الكريم كقوله تعالى:﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسراً﴾[42]

وكقوله تعالى:﴿ **الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ**﴾[43].

وكقوله تعالى:﴿ **وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ**﴾[44].

ومن كلام العرب ما **قاله المتنبي** مثلا:

فَقَلْقَلْتُ بِالسَهْمِ الذِي قَلْقَلَ الحَشَا. . . قَلاَقِل عَيْشٍ كُلهُن قَلاَقِلُ
غَثَاثَةُ عَيْش أن تُغَثُّ كرامَتي. . . وَلَيْس بِغَثٍّ أن تُغَثَّ المَآكِلُ

وقال أبو تمام:

قَسَمَ الزَمَانُ رُبُوعَها بين الصَبا. . . وَقَبُولُهَا وَدَبُورُها أثلاثَا

وقدكرر أبو تمام في ذكر " **القبول** " مع " **الصبا** "، لأنّ الصبا هي القبول[45]

وهذا التّكرار في القرآن الكريم وفي لغة العرب له أهدافه وغاياته، ولا سيما في القرآن الكريم، وقد أعطى الكثير من العلماء معان متعدّدة تفيد غرض التكرار، سواء للفظ، أو في الآيات أو القَصص وغيرها.

يقول الزمخشري:" إنّ في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس. وتثبيتاً لها في الصدور.

ألا ترى أنّه لا طريق إلى تحفظ العلوم إلاّ ترديد ما يرام تحفظه منها.

وكلّما زاد ترديده كان أمكن له في القلوب، وأرسخ له في الفهم، وأثبت للذكر، وأبعد من النسيان"[46].

د/موافقة القرآن للبيئة العربية من عادات وأحوال وقت التنزيل

فالقرآن الكريم كما وافق العرب من حيث كلامهم، فإنّه لم يُغفل بيئتهم التي يعيشون فيها فتناولها بالذكر دليلا على حسن الخَلْق، وليحسوا أنّ القرآن يُعايشهم ويراقب تصرّفاتهم، ومن بين ذلك هذه الأمثلة:

قوله تعالى:" ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾[47].

فهذا مشهد من مشاهد الأرض متعدّد الخطوات، وهو يعرض في بطء وتفصيل، وتترك كل خطوة للعين مدة كافية للتأمل، وللنفس مدة كافية للتأثر. هذا هو الماء ينزل من السماء، فيسلك ينابيع للري. ثم يخرج به زرعًا مختلفًا ألوانه[48]، وذلك ليستيقن هؤلاء مدى عظمة الخالق.

وممّا وافقهم القرآن في أحوالهم كتعاملاتهم المالية الربوية، كقوله تعالى: ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً**﴾[49]

"فإنّ ظاهر الآية يوهم تقييد الربا المحرّم بها إذا كان أضعافا مضاعفة؛ لكن إذا علم أنّ الغالب من عادات العرب التعامل بالربا المضاعف، وأنّ الرجل منهم كان يربي أجل، فإذا حلّ قال للمدين:

زدني في المال حتى أزيدك في الأجل، فيفعل .. وهكذا عند محلّ كلّ أجل كان يستأصل ما له بالدين الطفيف .. أقول: إذا علم هذا؛ علم أنّ الآية جاءت مراعاة لعاداتهم، وتنديدا بشنيع

معاملاتهم. فليس الربا مخصوصا بالمضاعف .. بل هو حرام قليله وكثيره، والقيد لبيان الواقع كما يقولون"[50].

ومن ذلك قوله تعالى:﴿ **يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ**﴾[51]، وقوله تعالى:﴿ **أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ**﴾[52] ، وأشباه ذلك .. فإنّها جري على معتادهم من اتخاذ الآلهة في الأرض، وإن كانوا مقرّين بألوهية الواحد الحق .. فجاءت الآيات بتعيين الفَوْق وتخصيصه؛ تنبيها على نفي ما ادعوه في الأرض من الأوثان، فلا يكون فيه دليل البتة على إثبات الجهة لله سبحانه.

ومن ذلك قوله تعالى:﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾[53] .. فعين هذا الكوكب مع أنّه رب الكواكب كلها؛ لأن العرب عبدته، وهم خزاعة[54].

ولذلك صوّر الشاطبي طرفا من معهود العرب في لسانها في التراوح بين المعاني والألفاظ والأساليب، فقال:" ومن معهودهم: ألا ترى الألفاظ تعبدا عند محافظتها على المعاني، وإن كانت تراعيها أيضا، فليس أحد الأمرين عندها بملتزم؛ بل قد تبني على أحدهما مرة، وعلى الآخر أخرى، ولا يكون ذلك قادحا في صحة كلامها واستقامته"[55].

وفي ختام هذا البحث لا بدّ أن نشير إلى أنّ موافقة القرآن لمعهود العرب في كلامها، وفي عاداتها ومقتضيات أحوالها هو غيض من فيض، فإذا عاد الإنسان ليتدبّر ذلك لاستخرج الكثير من ذلك، ثمّ لنذكّر أنّه يجب الرجوع إلى معهود العرب إذا أراد الإنسان فهم كتاب الله سواء من جهة اللّسان ، أو التفسير، أو البحث في الأحكام الشرعية، كما يستأنس بأسباب النزول.

عيشوبة محمد

الهوامش:

1/ سورة الإسراء 88

2/ العنكبوت 47

3/ القرطبي أبو عبد الله- الجامع لأحكام القرآن- تح: أحمد البردوني- دار الكتب المصرية- ط2:1384هـ- ج13/351

4/ الزرقاني عبد العظيم- مناهل العرفان في علوم القرآن- مطبعة عيسى- البابي الحلبي- ط3- دت- ج2/303

5/ ابن عطية الأندلسي- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز- تح: عبد السلام عبد الشافي- دار الكتب العلمية- بيروت-ج1/52

6/ حسن البنا – نظرات في كتاب الله- دار التوزيع والنشر-القاهرة- 1423هـ،2002م- ج1/365.

7/ المرجع السابق- ج1/ 537.

8/ محمد دراز- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم- تح: أحمد مصطفى فضيلة- دار القلم-1426هـ- ج1/133.

9/ سورة مريم 85،86

10/ الزمخشري أبو القاسم – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل- دار الكتاب العربي- بيروت-ط3:1407- ج3/42.

11/ سورة الزمر 71

12/ ينظر: أحمد ياسوف- جمالية المفردة القرآنية- دار المكتبي- دمشق- ط:1419هـ،1999م- ج1/262.

13/ ينظر: الزرقاني- مناهل العرفان – ج1/309

14/ينظر: المرجع نفسه- ج2/313،312

15/ الشاطبي إبراهيم بن موسى- الموافقات- تح: أبو عبيدة مشهور- دار ابن عفان-ط:1/1417هـ- ج2/.103

16/ عبد الله دراز- النبأ العظيم- ج1/118

17/سورة فصّلت 44

18/عبد الله دراز- النبأ العظيم-ج1/119

19/المرجع نفسه- ج1/119

20/ الشاطبي- الموافقات- ج2/82

21/ المصدر نفسه- ج3/351

22/الشافعي محمد ابن إدريس- الرسالة- تح: أحمد شاكر- مكتبة الحلبي- مصر- ط:1/1358-1940م-ج1/50

23/محمد رشيد رضا- تفسير القرآن لحكيم- الهيئة المصرية للكتاب- 1990م-ج1/22،21

24/محمد سالم أبو عاصي- علوم القرآن عند الشاطبي من خلال الموافقات- دار البصائر- القاهرة- 1426-2005م- ج1/38

25/ الخادمي نور الدين- علم مقاصد الشرعية- مكتبة العبيكان- ط1/2001،1421م- ج1/136

26/الشاطبي- الموافقات- ج2/105

27/ ينظر: الزركشي بدر الدين- البرهان في علوم القرآن- تح:أبو الفضل إبراهيم- دار إحياء الكتب العربية- 1376هـ-ج1/174

28/ ينظر:السوطي جلال الدين- الإتقان في علوم القرآن-تح: أبو الفضل إبراهيم-الهيئة المصرية للكتاب- ط:1394هـ- ج3/05

29/ الرازي أبو عبد الله- مفاتيح الغيب- دار إحياء التراث العربي- بيروت- ط3/1420هـ- ج2/253

30/ الطبري ابن جرير- جامع البيان في تأويل القرآن-تح:محمد شاكر- مؤسسة الرسالة-ط1/1420هـ- ج18/138.

31/ والبيت لعقبة ابن أبي معيط، ينظر: نجم الدين الإستراباذي- شرح شافية ابن الحاجب- تح: محمد نور الحسن-دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- 1395هـ- ج4/264

32/ لم أعثر على قائل هذا البيت في بعض الدواوين الشعرية وكتب اللغة.

33/لم أعثر على قائل هذا البيت أيضا في بعض الدواوين الشعرية وكتب اللغة

34/ السيوطي- الإتقان – ج27/3

35/ ابن قتيبة الدينوري ابن مسلم- أدب الكتاب- تح: محمد الدالي- مؤسسة الرسالة- ج214/1

36/ ينظر: المصدر نفسه- ج21/1

37/ سورة مريم 19

38/ سورة الأنفال 72

39/ سورة مريم 67

40/ سورة محمد 07

41/ سورة البقرة 284

42/ سورة الإنشراح 06

43/ سورة القارعة1،2

44/ سورة التكوير 17،18

45/ محمد المطعني- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية(دكتوراه)- مكتبة وهبة- ط1413/1هـ،1992م- ج470/2

46/ محمد المطعني- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية-ج334/1

47/ سورة الزُمَر 93

48/ ينظر:السيد قطب إبراهيم- التصوير الفنّي في القرآن- دار الشروق-ط17/ج70/1.

49/ سورة آل عمران 130

50/ محمد سالم أبو عاصي- علوم القرآن عند الشاطبي من خلال كتابه الموافقات- ج45/1

51/ سورة النحل: 50

52/ سورة الملك: 16

53/ سورة النجم: 49

54/ ينظر: محمد سالم أبو عاصي- علوم القرآن عند الشاطبي من خلال كتابه الموافقات-ج45/1

55/ الشاطبي- الموافقات- ج82/2